

الصورة بوصفها ذاكرة: شهادات بصرية عن كونغو في أزمة.

بامبلا توليزو

مصور

pamelatulizo04@gmail.com

من هي بامبلا توليزو (Pamela Tulizo) وما هو مسارها الفني؟

أنا بامبلا توليزو مصورة وثائقية متخصصة في فنون الإخراج. منذ حوالي خمس أو ست سنوات، أصبحت أمارس التصوير الفوتوغرافي بصفة احترافية، وأقيم في مدينة غوما (Goma) التي تقع في شرق جمهورية الكونغو الديمقراطية، حيث بدأت مسيرتي المهنية. بدأت هذه المسيرة في مجال الصحافة، إلا أنني أحسست سريعاً بالقيود التي فرضتها الإكراهات التحريرية السائدة في غرف الأخبار، مما أعاق قدرتي على استكشاف بعض المواضيع بحرية تامة. هذه القيود كانت تحول دون قدرتي على التعبير عن أفكارتي كما أريد، مما دفعني للتساؤل عن كيفية التعبير عنها بطريقة أصيلة ودون أن أكون مقيدة بإطار صارم

لذلك توجهتُ إلى عالم التصوير الفوتوغرافي. وبما أنني قد ألفت بعض الشيء آلة التصوير، بدا هذا التحول في مسيرتي المهنية أمراً بديهياً رغم أنه لم تكن هناك مدارس للتصوير الفوتوغرافي أو أكاديميات للفنون الجميلة في غوما كما في كينشاسا أو لوبومباشي (Lubumbashi). علاوة على ذلك، لم يكن هناك سوى عدد قليل من النساء اللواتي يشتغلن في مجال التصوير الوثائقي لتوجيهي وإرشادي. ولكوني امرأة نشأت في غوما، كنتُ دائماً على يقين من أن نساء مدينتي يمتلكن قوة شخصية وقدرة على مقاومة الصعاب لا تخفيان على أحد. ومع ذلك، فإن هذا الجانب الأساسي من حياتهن يتم تجاهله على نطاق واسع. لم تكن ثمة أي توثيقات تبرز مشاركتهن الفعالة في النشاط الاقتصادي، أو دورهن في التنمية، أو انخراطهن في المجالين العائلي والتعليمي.

لقد دفعتني هذه الملاحظة للانخراط في مجال التصوير الفوتوغرافي. أردت من خلال عدستي أن أكون سفيرة لهؤلاء النساء، وأبرز قصتهن، وأبرز قوتهن وجمالهن. عندما اتخذت القرار لأصبح مصورة، كان عليّ أن أخبر عائلتي. لقد اعترض والدي على هذا القرار في شدة، لكونه يعتبر أن هذه المهنة هي حكر على الرجال فقط. ففي نظره، بوصفي امرأة يجب أن يقتصر انشغالي في المستقبل بالزواج والإنجاب ورعاية أطفالي. لقد مثلت هذه اللحظة نقطة تحول حاسمة في حياتي ومسيرتي المهنية. فقد أثارت كلماته في نفسي العديد من التساؤلات: فيما تتمثل منزلتي في المجتمع؟ وهل دوري محدد سلفاً وفقاً للمعايير الثقافية والاجتماعية؟ أدركت أنه إذا كان والدي يفكر بهذه الطريقة، فإن العديد من النساء من جيلي ربما كنّ يواجهن نفس المواقف، يحلمن بمستقبل مختلف، لكنهن يصطدمن بنفس العوائق. في مواجهة هذا الاختيار بين التصوير وعائلتي - قررتُ أن أستمر في السير في الطريق الذي اخترته لنفسني رغم كل شيء. وعلى مدار عامين تقريباً، سبب قرارتي هذا في توترات داخل العائلة. لحسن الحظ، كانت والدتي تدعمني سراً، وتخفي عن والدي نشاطاتي كلما كان عليّ حضور تدريب أو فعالية متعلقة بالتصوير.

How to cite this paper:

بامبلا توليزو (2025) الصورة بوصفها ذاكرة: شهادات بصرية عن كونغو في أزمة. *Global Africa*, (9), pp. 32-33

Published: March 20, 2025

<https://doi.org/10.57832/qsyd-0h25>



وحتى يمكنني أن أسدّد نفقات دراستي كان لا بدّ من أن أكثّف من تقديم الخدمات في مجال التصوير في الأعراس وفي حفلات أعياد الميلاد وفي كلّ ما يمكنه أن يوفر لي دخلاً ويساعدني على السير قدماً لتحقيق أهدافي. لقد كان لهذا الفصل من حياتي تأثير عميق على مسيرتي الفنية. أما اليوم، فكلّ عملي مرّكز على استكشاف الهوية النسائية، وعلى دور النساء في المجتمعات المعاصرة والتقليدية ومنزلتهنّ فيها. فمن خلال صوري الفوتوغرافية، أتطرّق إلى قضايا حقوق المرأة، والمساواة بين الجنسين، والتنمية، والنهوض المستمر بوضع المرأة. وهكذا تتميز مقاربتني الفنية بإبراز مظاهر القوة والجمال والقدرة على الفعل التي تتمتع بها النساء الإفريقيات عبر الأجيال المتعاقبة.

في أعالي أركز على استكشاف الشخصيات النسائية التي ساهمت في تشكيل هوية النساء الأفريقيات وفي صنع تاريخها. في فترة لاحقة، تابعت دراستي في مجال التصوير الفوتوغرافي في ورشات لتدريس التصوير الفوتوغرافي (Market photo Workshop) في جنوب إفريقيا. كانت هذه التجربة نقطة تحول مهمة في مسيرتي الفنية؛ وإن لم تقلبها رأساً على عقب، فقد ساهمت في صقلها وشذبتها.

قبل هذه الدورة التدريبية، كان عملي الوثائقي يركّز بصفة أساسية على صور الأشخاص أو الصور التي التقطها في الشوارع. ولكن مع مرور الوقت، أدركت أن هناك نقصاً في سردي لما ألتقطه من صور. كانت هناك عناصر أساسية لم أتمكن من نقلها بالاقتصار على التصوير الفوتوغرافي الوثائقي. لاحظت أنه ثمة قوة، وحضور، وسلطة تنبع ممّا [ممن] كنت أصوره، لكنّ هذه العناصر كانت غالباً ما تنفّلت من الصورة الخام. وعليه عملت على أن أقحم فنّ الإخراج في مقاربتني الفنية. فهذا الفنّ يتيح لي صياغة روايتي وفقاً لرؤيتي الشخصية، ويمنحني القدرة على رسم الجمال، والألوان بطابعي الخاص، وتركيب مشاهد من شأنها أن تجعل من الرسالة التي أرغب في نقلها أبلغ وأكثر تأثيراً على متقبليها.

اليوم، أعتبر فني بمثابة فيلم، ولكن أحداثه سردتها في صور ثابتة. أبدأ دائماً بطرح سؤال أو قضية، ثم أجمع شهادات وقصص. هذه القصص أعيد صياغتها من خلال تصويري الفوتوغرافي، بحيث تكتسب كل صورة عمقاً رمزياً وسردياً.

يغرق الشرق الكونغولي مرّة أخرى في الحرب. كيف تعيشين هذه المأساة المتجددة بوصفك امرأة كونغولية؟ وما هو الدور الذي يمكن أن تلعبه فنانة مثلك في مواجهة هذه الفظائع؟

أنا فنانة، أنا مصورة، وهذا هو كلّ ما يمكنني تقديمه للعالم. الوضع الحالي في غوما (Goma) مرعب، خاصة بالنسبة إلى النساء. عندما يندلع نزاع ما، يكون النساء أول ضحاياه. العنف الجنسي يُستعمل سلاحاً في الحرب. يقاسي النساء والفتيات من ضروب متعددة من المعاناة: فهن لا يُستغلن فقط [جنسياً] في الصراع، بل يواجهن أيضاً انعدام الأمن، والنزوح القسري، والمجازر، والفقر، والأمراض المختلفة. ومن ثمّ، فهن يتكبّدن صدمات نفسية عميقة، تُتعدّى من الإحساس بعدم الاستقرار ووحشية هذه الأحداث. هذه المرة، كنتُ في غوما عندما اندلعت أعمال العنف، ولأول مرّة، وصلت الحرب فعلياً إلى قلب المدينة. لم تعد المعارك منحصرة في الأطراف أو على بُعد عدة كيلومترات منها، بل كانت الاشتباكات المسلحة تدور في شوارع غوما نفسها.

ما شاهدته بأبّ عيني من هذه الأحداث لا يمكن وصفه، رعب يُعاش يومياً. رأيتُ بُنية في الثانية من عمرها تعاني من صدمة نفسية عميقة، وأنا نفسي كنتُ في حالة من الارتباك الشديد جرّاء القصف، والاعتقالات، والخوف الذي كان يخيم في كل مكان. وباعتباري فنانة، يتمثّل دوري في توثيق هذه المأساة بطريقتي الخاصة. صحيح أن الصحفيين يقومون بالفعل بعمل ميداني، لكن لأول مرة شعرتُ أن الصحافة الدولية لم تعرض كل أبعاد هذه المأساة. عادةً ما كنت من أولئك الذين ينددون بالصورة السلبية التي يتمّ تصوير غوما بها عبر وسائل الإعلام. لكن هذه المرّة، لم يكن الأمر متعلّقاً بتصوير سيء، بل كان صمّماً مدوياً. أمام هذا الوضع، كل ما أستطيع فعله هو أن أكون شاهدة على ما يحدث من فضاءات. أرغب في التنديد بما يحدث وروايته من خلال صوري. سيصدر هذا العمل قريباً: سلسلة تصويرية مستوحاة مما رأيته وسمعته وشعرت به أثناء الحرب في غوما. إنّ تحويل هذه الشهادات إلى صور هو طريقتي في المشاركة للتنديد بما يحدث، أهب من خلاله صوتاً لأولئك الذين يعانون، حتّى لا تذهب هذه القصة إلى النسيان.

يمكنكم الاطلاع على النص الكامل لهذا الحوار على موقعنا الإلكتروني : www.globalafricasciences.org